

*Nukhbat al-tujār al-yahūd wa al-ttahaoulāt**fī Maghrib mā qabla al-ḥimāya*

نخبة التجار اليهود والتحويلات في مغرب ما قبل الحماية

حفصة الحايل

باحثة، الرباط

تميز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتفاقم التغلغل الأوروبي في مختلف المجالات وإدماج المغرب في السوق العالمية، وقد تلا ذلك انطلاق مسلسل زعزعة بنيات البلاد التقليدية وإضعاف قدراتها على مواجهة المخاطر المحدقة بها. وأمام سوء الأحوال وتزايد الضغوط الأجنبية والدروس المستقاة من سقوط الجزائر في قبضة الفرنسيين والمحاولات المبذولة في مصر لتمكينها من التصدي لأطماع الفرنسيين والإنجليز، برز الوعي لدى بعض العناصر ضمن الدوائر المخزنية العليا بضرورة القيام بإصلاحات يتوخى منها الحفاظ على استقلال البلاد وسيادتها.

مقومات النخبة اليهودية وعلاقتها بالتحويلات الطارئة

استلزمت هذه الوضعية الحرجة والإجراءات العملية المفترض اتخاذها تعبئة ما تيسر وجوده من الطاقات الداخلية والعناصر ذات المؤهلات اللازمة للإسهام في المحاولات الرامية إلى تحديث البلاد ولو بصفة جزئية وفي القطاعات ذات الأولوية القصوى. وبفضل تجربتهم واحتكاكهم بأوروبا، بل وإقامة بعضهم بأراضيها بصفتهم مهاجرين، كان كبار التجار بما فيهم المتعاملون مع بلدان المشرق ولاسيما مصر، في طليعة القوى الحية التي يمكن الاستعانة بها نظريا بغية إشراكها في مبادرات الإصلاح المرتقبة. وفي هذا المجال بالذات تمتعت النخب التجارية اليهودية بوضع متميز بفضل علاقاتها القديمة مع أوروبا وتوفر عناصرها على

أحد عامل التفوق المتمثل في تواصلها مع المواطنين اليهود الفرنسيين والإنجليز والهولنديين والألمان والأمريكيين وغيرهم.¹

وانطلاقاً من أواسط القرن التاسع عشر، بدأت دائرة النخب اليهودية المغربية تتسع شيئاً ما لتشمل عناصر من صنف جديد ومغاير لفئة التجار التقليدية، برزت ضمن الطوائف اليهودية بفضل التعليم الذي تلقته هذه العناصر في مدارس الرابطة اليهودية العالمية، الجمعية التي تأسست في باريس في سنة 1860 وعباً مسيروها جهودهم لتحسين أوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية والقانونية في العالم الإسلامي وأوروبا الوسطى والشرقية.

ويحق التساؤل وبشكل خاص في هذا الصدد، عن مواقف النخبة التجارية اليهودية التقليدية إزاء التطورات التي مرت بها البلاد إبان القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وتجاه الحداثة بصفة عامة وقضايا الإصلاح على وجه التحديد؟

يقدر عدد ساكنة المغرب الإجمالي عند أواخر القرن التاسع عشر بحوالي 6.000.000 نسمة، وتشكل نسبة اليهود في غياب إحصائيات دقيقة حوالي 200.000 و250.000، وأغلبية هؤلاء اليهود من القاطنين بالمدن عكس المسلمين الذين شكلوا حوالي 80 في المائة من المستقرين في البوادي، وعموما عاش معظم اليهود في الملاحات، باستثناء بعض المدن التي لم تتوفر بها أحياء خاصة بهم.²

ومارست عناصر الطائفة اليهودية على اختلاف مراتبها التجارة ومختلف الأنشطة المرتبطة بالمال والصرف، كما توفرت بفضل أرباحها التجارية على بعض العقارات في المدن وشاركت في أنشطة القطاع الفلاحي بواسطة المخالطات مع الفلاحين ومربي الماشية المسلمين.

1. Mohammed Kenbib, *Juifs et musulmans au Maroc 1859-1948, Contribution à l'histoire des relations inter-communautaires en terre d'Islam* (Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 1994), 58-72; 240-52;

وأيضاً كتاب محمد كنيب، المحميون، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص بحوث ودراسات رقم 47، 2011)، 73؛ وانظر أيضاً أساء لناذج من هذه النخبة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في مدينة الصويرة، دانييل شروتير، تجار الصويرة، المجتمع الحضري والأميرالية في جنوب غرب المغرب، 1886-1844، تعريب خالد بن الصغير (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم 6، 1997)، 62.

2. André Chouraqui, *Histoire des Juifs en Afrique du Nord* (Paris: Hachette, 1985), 343-350.

واستفادت عناصر الفئة الغنية داخل الطائفة اليهودية في تحقيق ثروتها من علاقاتها المتينة مع الدوائر المخزنية المركزية، بما في ذلك السلطان والوزراء، وأيضا على المستويين الإقليمي والمحلي بما في ذلك العمال والقواد وأعيان القبائل. وبفضل هذا الوضع الذي استفاد منه أيضا كبار التجار المسلمين، حصل هؤلاء اليهود على امتيازات وتسهيلات وظهائر التوقير والاحترام، فساعدتهم هذه العوامل مجتمعة على احتلال مكانة خاصة واكتساب وزن استثنائي جعل منهم وسطاء لا غنى عنهم وعن خبرتهم.³

والواقع أن هؤلاء التجار اليهود قد احتلوا منذ زمن بعيد موقعا متميزا في مجال التجارة البحرية، إذ اعتاد السلاطين على تكليفهم بتفعيل دور الوساطة بين المغرب وأوروبا، سواء بصفة منفردة أم إلى جانب شركاء مسلمين. وذلك ما تدل عليه المهام التي أسندت إليهم في عهد سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) مثلا، وهو السلطان الذي شجع التجارة البحرية بشكل منهجي انطلاقا من مرسى الصويرة، وعبأ فئة خاصة من التجار المسلمين واليهود لبلوغ هذه المرامي.⁴

وبفضل ما حققه هذا السلطان في هذا الشأن، اعتبره الدارسون أول واضع للبنىات الممهدة لانفتاح البلاد على الحداثة، على المدى الطويل، وهذا على الرغم من طرح بعض المؤرخين فرضيات مفادها أن المغرب كان على عتبة الحداثة انطلاقا من القرن السادس عشر، وبشكل أدق في عهد السعديين الذين قاموا بالشيء الكثير لتعزيز علاقاتهم مع الهولنديين والانجليز، وهي علاقات اضطلع فيها بعض اليهود بدور أساسي.⁵

3. Michel Abitbol, "Un aspect des relations judéo-musulmanes au Maghreb à la fin du XIX^{ème} siècle: les négociants du Roi et la bourgeoisie marocaine à la veille du Protectorat," in *Les relations entre juifs et musulmans en Afrique du Nord XIX-XX siècles* (Paris: Éditions du CNRS, 1980), 110-117.

4. انظر في هذا الصدد نموذج آل مقنين على عهد السلطان مولاي سليمان والمولى عبد الرحمن عند دانييل شروتير، يهودي السلطان المغرب وعالم اليهود السفراد، تعريب خالد بن الصغير (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، رقم 15، 2011)، 25-61.

5. انظر ما جاء بهذا الشأن في كتابات بيرنار روزنبرجي وعبد المجيد القدوري:

Bernard Rosenberger, "Les Juifs au Maroc dans la première moitié du XV^{ème} siècle," *Hespéris-Tamuda* XXXVII (1999): 113-162; Abdelmajid Kaddouri, *Le Maroc et l'Europe, problématique du dépassement XV^e-XVII^e siècles*, traduction de Abdelhak Lamsalmi, (Casablanca: La Croisée des Chemins, 2012).

وتعزز هذا الدور تدريجياً إلى أن اكتسى حجماً غير مسبوق خلال القرن التاسع عشر حيث تطورت العلاقات المغربية الأوروبية إبان هذه الحقبة، وتصدرها تغيير جوهرى في موازين القوى لصالح الدول الأوروبية وتزايد ضغوط هذه الدول لإرغام المغرب على فتح أبواب أسواقه تسهيلاً لتغلغلهم، وذلك على الرغم من جهود السلطان عبد الرحمن بن هشام (1822-1859)، للسير على خطوات سلفه سيدي محمد بن عبد الله والتخلي عن خيار تقليص المبادلات البحرية الذي عمل به المولى سليمان (1789-1822) لاعتبارات اجتمع فيها ما هو اقتصادي واجتماعي وإيديولوجي وديني.⁶ إلا أن إعادة إحياء نظام "تجار السلطان" انطلقاً من سنة 1822 ما لبث أن اصطدم باعتراضات عبرت عنها القوى الأوروبية بصريح العبارة، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى التي تجندت لممارسة ضغوطها بهدف الانتقال إلى طور جديد في علاقاتها مع المغرب عبر إخضاعه لبنود معاهدات غير متكافئة كانت من أكثرها أهمية وتأثيراً اتفاقية 1856 المشهورة. وفي هذا السياق أصبحت النخب التجارية المسلمة واليهودية محط منافسة حادة بين الجانبين ومختلف القوى الأوروبية ذاتها.⁷

وإذا كان السلطان يدرك وفي هذا المجال بالذات، مزايا تعبئة مهارات التجار اليهود في حقل التجارة الدولية والمحلية على السواء لصالحه ولصالح بيت المال، فإن الدول الأوروبية من جهتها بذلت قصارى جهودها لحثهم على الالتحاق بمعسكرها ووضع خبرتهم رهن إشارتها وفي خدمة دورها التجارية وشركاتها الصناعية ومؤسساتها المصرفية والبنكية. واتسمت محاولات الأوروبيين في هذا المجال بجاذبية قصوى لم يتردد في الاستجابة لها عدد لا بأس به من التجار اليهود والمسلمين على السواء، لأن التعامل المباشر مع الدور التجارية الأوروبية والإفلات من قيود نظام "تجار السلطان" -على الرغم من كل امتيازاته- كان يعني لهم تحقيق مزيد من الأرباح وصيانة تراكمها، والاستفادة من التسهيلات البنكية والقروض، فضلاً عن الامتيازات القضائية والجبائية المهمة التي وفرتها لهم بطاقات الحماية القنصلية وشهادات التجنيس.⁸

6. محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، 1792-1822، ترجمة محمد حبيدة (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006)، 73-148.

7. خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886)، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 34، 1997)، 61-122 و 259-276.

8. محمد كنيب، المحميون (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص بحوث ودراسات رقم 47، 2011)، 291-301 و 302-312.

وقد تنبه السلطان في وقت مبكر إلى المخاطر الناجمة عن جاذبية الحماية الأجنبية وبداية انتشارها في الوسط اليهودي وما كان يعنيه من الناحية الدينية والسياسية سلوك حتى بعض اليهود الأجانب خلال زيارتهم للمغرب وإقدامهم على تصرفات مغايرة للسلوك المعهود لدى أهل الذمة. وفي إثر نزاعات تسبب فيها أحد يهود الجزائر واتخاذ قرار يقضي بطرده من البلاد، أوضح السلطان المولى عبد الرحمن في رسالة وجهها للقنصل العام الفرنسي بطنجة بتاريخ 19 يوليوز من سنة 1841 ما يلي :

”الخدِيم الذي له بخدمة جنابنا العالِي بالله كمال الاعْتناء والاهْتِمام... قونصو جنس الفرنصيص...، وصلنا كتابك مراجعا في شأن اليهودي (فلان) حسب ما أمركم بذلك عظيم جنسكم المحب في جنابنا العالِي... وطلب بيان أمره زيادة على ما قدمنا وليس بعد البيان بيان، فإن اليهود بإيالتنا السعيدة معاهدون على شرط أهل الذمة التي أثبتها شرعنا الكريم وعمل عليها أهل ملتنا في الحديث والقديم، فإن وقف أهل الذمة عند ما شرط عليهم وجب في شرعنا حقن دمائهم وحفظ أموالهم وإن نقضوا ولو شرطا واحدا حل في شرعنا العزيز دمهم و ما لهم، وليس لهم في ديننا الكريم إلا شعار الذلة والصغار حتى أن الواحد منهم إذا رفع صوته على المسلم فقد نقض الذمة، فإن كانوا عندكم متساوين معكم في كل شيء ومن جملتكم فليكن ذلك في أرضكم لا في أرضنا إذ ليس حكمكم عندنا لحكمهم فأنتم مصالحون وهم معاهدون فمن أراد منهم أن يقدم للتجارة بإيالتنا... فليس مسلك أهل الذمة (كمسلوهم عندكم)... فمن لم يرد (الامثال) فليبق بأرضه، فلا حاجة لنا بتجارته على وجه يخالف شرعنا العزيز...“⁹

إلا أن ضرورة تفادي القطيعة مع فئة كبار التجار ممن استظلوا بالحمايات الأجنبية وتفادي المواجهة مع الدول الحامية جعلت السلطان يغض الطرف أمام

9. Planche XVIII, 20 hijja 1257/19 juillet 1841. Eugène Fumey, *Correspondances marocaines. 50 lettres chérifiennes, Textes et Notes* (Paris: Maisonneuve, 1903), 41.

الأمر الواقع ويسلم به ضمناً على الرغم من تمسكه بسيادته وسلطته على هذا الصنف من رعاياه، خصوصاً وأنه يدرك أن تلك العناصر لا ترغب من جهتها في الوصول إلى حد القطيعة معه ومع "التقاليد".¹⁰ فما هي إذن أهم تجليات انفتاح هذه العناصر على الحداثة بأشكالها ودلالاتها الغربية، وما حدود هذا الانفتاح وبلورته على أرض الواقع سواء في تصرفاتهم تجاه محيطهم المغربي وتجاه الأوروبيين؟

انفتاح نخبة التجار اليهود على مقومات الحداثة الغربية

إنه لمن الصعوبة بمكان تقييم مواقف وازدواجية سلوك غالبية أعضاء هذه الفئة التي اختارت نهجا براغماتياً أمكنها من التأقلم مع الأوضاع الجديدة واستغلال كل الفرص المتاحة لتحقيق مزيد من الأرباح والتمكن من أسباب الارتقاء والنفوذ. ويعني أخذهم بمعايير غربية اقتنعوا بجدواها وعدم تناقضها مع معتقداتهم الدينية من جهة، تفادي إحداث أية قطيعة مع الروابط والصلات التقليدية، من جهة أخرى، ولاسيما مع الدوائر المخزنية العليا والجهوية، ومع الأعيان المسلمين في المدن والقبائل، بما في ذلك شيوخ الزوايا، ومن ضمن هؤلاء على سبيل المثال بالنسبة للنصف الثاني من القرن التاسع عشر، الشريف عبد السلام الوزاني، المحمي الفرنسي انطلقاً من سنة 1884، ومحمد المصلوحي، شريف تمصلوحت، المحمي الانجليزي ابتداء من سنة 1892 أو 1893.¹¹

ومن تجليات الانخراط المفتوح أو المحتشم في بعض روافد الحداثة، نذكر على سبيل المثال:

• محاولة تجاوز التصورات والتمثيلات النمطية السائدة لدى اليهود والمسلمين تجاه الأوروبيين، بصفتهم نصارى متمسكين بشكل أو بآخر بالروح الصليبية، وإظهار الاستعداد للتعامل مع "الكفار" في منظور المسلمين ومضطهدي إخوانهم في الدين داخل الديار المسيحية بالنسبة لليهود، لا في المجال التجاري فحسب، بل أيضاً باعتبارهم أعواناً قنصليين ومترجمين.

10. Mohammed Kenbib, "Structures traditionnelles et protections consulaires dans le Maroc précolonial," in René Galissot (dir.), *Structures et cultures précapitalistes* (Paris: Anthropos, 1980), 447-470.

11. خالد بن الصغبر، "الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية: نموذجي الزاوية الوزانية والمصلوحية"، المناهل، 29 (2007): 209-255.

• إمكانية الاستفادة من زيارات متكررة للدول الخارجية بغية الاستئناس بالعقلية والعادات الغربية واللغات الأجنبية وتوظيفها لتقوية مكانتهم كوسطاء لا خيار للأوروبيين المتعاملين مع المغرب سوى الاستعانة بهم ومكافئتهم على خدماتهم، فكان ذلك شأن بعض كبار التجار المسلمين ممن تعلموا هم أيضا تلك اللغات وصاروا قادرين على التواصل مع العملاء الأجانب باللغات الإسبانية والإنجليزية والفرنسية. ومثال ذلك، أحد كبار الشخصيات المخزنية وهو عبد الكريم بريشة التطواني الذي تمكن من الجمع بين ممارسة التجارة ووظيفة الأمانة بالمراسي، إلى جانب الاضطلاع أحيانا بمهام دبلوماسية.

• استغلال الفرص التي أتاحتها أمامهم النظام الرأسمالي الغربي، ولاسيما المضاربات في البورصة، لتحقيق أرباح إضافية تعزز مكاسبهم التجارية، فاهتموا بشراء أسهم بعض الشركات الكبرى، ومنها إقدام تجار مغاربة مسلمين ويهود على شراء أسهم الشركة الملاحية الفرنسية "باكي" (Paquet).¹²

• الاستفادة المبكرة، وقبل العناصر المسلمة بكثير، من تقنيات المحاسبة العصرية والإشهار، والانخراط في تمثيل الدور التجارية والأبنك وشركات التأمين والشركات الملاحية الأوروبية.

• تراجع أعضاء هذه الفئة تدريجيا عن معارضتهم لمشروع الرابطة اليهودية العالمية (أهم جمعية يهودية فرنسية) ولجنة مندوبي يهود بريطانيا وبعدها الجمعية اليهودية البريطانية القاضي بإحداث مدارس عصرية لفائدة القاطنين بملاحظات المغرب على وجه الإحسان والتضامن الديني بغية تحسين أوضاع الفئات البسيطة والتخفيف من حدة الفقر التي كانت تعاني من جرائه وسط أحياء مكتظة بالسكان، لا سيما خلال مراحل الجفاف وانتشار الأوبئة (1862-1868، 1878-1884، 1891، 1895...). وقد سبق لأثرياء اليهود المحافظين معاكسة هذا المشروع بقوة إثر إقدام الرابطة على فتح أول مدرسة لها بتطوان سنة 1862، وهي أول مؤسسة من هذا النوع أقامت في المغرب والعالم الإسلامي، وحاولوا تبرير معارضتهم بالتحذير من المخاطر المحدقة بالدين والتقاليد والهوية الإثنية-الثقافية في حالة انتشار نظام

12. Jean-Louis Miège, *Le Maroc et l'Europe 1830-1894* (Paris: Presses Universitaires de France, 1962) vol. II, 86-97.

تربوي دخيل وغريب وسط الطوائف اليهودية، لاسيما وأن تلقين الدروس قد تقرر أن يكون باللغة الفرنسية والاعتماد على خدمات معلمين يهود قادمين من فرنسا وأوروبا الشرقية، لكنهم لا يعرفون شيئاً عن إخوانهم في الدين من المغاربة. غير أن الفئات المحافظة اضطرت في نهاية الأمر إلى التراجع تحت ضغط الرابطة وحفاظاً على علاقاتها مع الجمعية المذكورة ومثيلتها البريطانية، بصفتها جمعيتين يهوديتين نافذتين في باريس ولندن وتتحركان على الساحة المغربية بتزكية من الحكومتين الفرنسية والبريطانية.¹³

• تأثر أعضاء النخبة اليهودية المحافظة إلى حد ما ببعض أنماط الحضارة السائدة بأوروبا، وذلك في وقت مبكر سبق تأسيس مدارس عصرية فرنكوفونية. وتجلى هذا التأثير في مجال لباس الرجال والنساء على السواء، وتأثيت جزء من الدور السكنية، وما يرتبط بتناول المشروبات الروحية والتدخين. وقد ساهموا تدريجياً في نقل هذه الأنماط "الاستهلاكية" إلى بعض العناصر المسلمة. وتدل على هذه النزعة مراسلات كبار تجار أسرة قرقوز المراكش والصويرية، وكذا ما صار سائداً في هذا المجال بين بعض عامة المسلمين في المدن الساحلية.

وتواجدت معظم الخمارات داخل الملاحات الموجودة منها بالمدن الساحلية والداخلية على حد سواء. ومن جهة أخرى، بادر اليهود قبل غيرهم إلى إحداث محلات أو "مصانع صغرى" لانتاج المشروبات الغازية والسجائر واستيراد كل أنواع المشروبات الروحية من أوروبا والولايات المتحدة وجزر الأنتيل. وتزامنت هذه التغييرات مع احتدام النقاش في أوساط الفقهاء، فأصدروا سلسلة من الفتاوى في مواضيع كثيرة من شرب الشاي واستعمال الصابون المستورد من "دار الكفر."

- وخلافاً للمسلمين، كان كبار التجار اليهود لا ينزعجون من إدخال الزوار الأوروبيين إلى بيوتهم واستقبالهم وسط نسائهم وبناتهم كما تدل على ذلك لوحات الفنان الفرنسي الشهير أوجين دو لاكروا (Eugène Delacroix) الذي زار المغرب سنة 1831 ضمن بعثة دبلوماسية رسمية واستضافه بطنجة الثري اليهودي أبراهام

13. Michael Laskier, *The Alliance Israelite Universelle and the Jewish Communities of Morocco, 1862-1962* (Albany: State University of New York Press, 1983), 80-96.

بن شيمول، وهو في الوقت ذاته تاجر ومصرفي كبير، وترجمان للمفوضية الفرنسية، وابنه هو حاييم بن شيمول الذي صار على نهج والده حين أقدم على تأسيس جريدة لوريقي دو ماروك (*Le Réveil du Maroc*).¹⁴ ويتجلى عدم انزعاجهم أيضا فيما ورد بهذا الشأن في كتاب بيير لوتي (Pierre Loti)، الضابط السابق والكاتب الشهير الذي سبق له كذلك أن زار المغرب سنة 1889 ضمن بعثة سفارية رسمية واستضافه يعقوب أحناء، الثري اليهودي بمكناس، والتاجر الكبير المقرب من السلطان المولى الحسن ووزيره الصدر بأحمد، والمحامي الفرنسي في الآن ذاته بحكم اشتغاله وكيلا في خدمة بعض الدور التجارية الفرنسية.¹⁵

• وتعكس هذه الحماية المزدوجة، والمتعددة الأطراف أحيانا، مدى تشبث أثرياء يهود المغرب بالتقاليد بمختلف أشكالها وصيغها، وضمنها الحرص على استمرار العلاقات مع الدوائر المسلمة النافذة، وفي طليعتها السلطان. ويؤكد إلحاحهم الشديد على الاستفادة من تجديد السلاطين لظواهر التوقير والاحترام الممنوحة لأسلافهم من قبل على الأهمية البالغة التي أولوها لروابطهم مع المخزن ولفوائد شتى دأبوا على تحقيقها بهذه الكيفية.¹⁶

غير أن الحرص على هذه الروابط كان لا يمنعهم في بعض الأحيان من اتخاذ مواقف مقلقة للغاية في نظر المخزن وامتضارية تمام التضارب مع سلطته وسيادته. وتندرج ضمن هذه المواقف المبادرات التي دأب هؤلاء التجار على اتخاذها في حالة نشوب النزاعات بين السلطات المخزنية وإخوانهم في الدين بالمدن والبوادي، أو في بعض الأحيان حتى عندما كان الضرر اللاحق لإخوانه قد صدر عن قنصل أو سفير أوروبي. وهذا ما وقع بالذات عندما مارس المفوض الإسباني بطنجة ضغوطا قوية وهدد بحث حكومته على إعلان الحرب في حالة عدم استجابة السلطان محمد بن عبد الرحمن (1859-1873) للمطلب القاضي بإعدام أربعة يهود اتهمهم بقتل إسباني مقيم بأسفي.¹⁷

14. Maurice Arama, *Delacroix: Un voyage initiatique. Maroc, Andalousie, Algérie* (Paris: Éditions Non Lieu, 2006), 113-145; Jamaâ Baida, *La presse marocaine d'expression française. Des origines à 1956* (Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 1996) 42-44.

15. Pierre Loti, *Au Maroc* (Paris: Ancienne Maison Michel Lévy Frères, 1891) 139.

16. كنيب، المحميون، 291-301.

17. Kenbib, *Juifs et musulmans*, 123-172.

التخلص التدريجي من وضع أهل الذمة بتأثير من الخارج

وفي سياق الضجة التي أحدثتها هذه القضية، قام موزس مونطيفوري (Moses Montefiore)، رئيس أكبر جمعية يهودية بريطانية، بزيارة إلى مراكش في مطلع سنة 1864 بطلب من كبار التجار اليهود في بريطانيا وبمساندة من الحكومة البريطانية، فحصل خلالها على ظهير يؤكد فيه السلطان حقوق رعاياه اليهود ويأمر العمال والقواد بإنصافهم. واللافت أنه تم طمس مسؤولية إسبانيا خلال هذه الزيارة ولم يتم بعدها الإلحاح سوى على استبداد القواد، كما أن الظهير وقع تأويله تأويلا مخالفا لما ورد فيه وأحدث توترا في مختلف أنحاء البلاد.¹⁸

والواقع أن الزيارة التي قام بها مونطيفوري وقال أنها مبادرة لها طابع خيري وإنساني صرف، شكلت منعطفا في تاريخ المجموعات اليهودية المغربية حيث تلاها تسابق الدول الأوروبية لتوسيع نفوذها وسط هذه المجموعات بدعوى الدفاع عن قيم الحضارة ومقاومة الاضطهاد، لاسيما وأن اليهود كانوا يظهرون، حسب دعاية السفراء والقناصل الأجانب، استعدادا كبيرا للانفتاح على الحضارة الغربية، على خلاف الأغلبية الساحقة من المسلمين ممن رفضوها رفضا باتا وتمسكوا بتعصبهم وكرهيتهم للنصارى. وقد كان بعض كبار التجار اليهود المغاربة يزكون هذا الطرح ويحثون السفراء الأوروبيين على منح حمايتهم لجميع اليهود المغاربة.¹⁹

وتجلى هذا المنطق بشكل واضح خلال أشغال مؤتمر مدريد الدولي حيث التقت مصالح القوى الأوروبية ونواياها التوسعة مع تمسك كبار التجار اليهود المغاربة والجمعيات اليهودية الفرنسية والأنجليزية والأمريكية التي كانت تؤازرهم وتدعو إلى تعميم الحماية الأجنبية على جميع يهود المغرب.²⁰ وقد أدى تظافر جهود كل هذه الأطراف إلى فشل المساعي التي بذلها المخزن طيلة السنوات التي أعقبت حرب تطوان لتقليص الانتشار الفوضوي للحمايات والمخالفات وتعميم الضرائب

18. انظر ما جاء عند محمد كنيب وخالد بن الصغير حول هذه الزيارة ونتائجها:

Kenbib, *Juifs et musulmans au Maroc*, 147-123؛ بن الصغير، المغرب وبريطانيا، 296-307.

19. وذلك ما كان يقال مرارا للسفراء الفرنسيين مثلا، حيث ورد في تقرير أحدهم: "إن اليهود المحيطين بي (ومن ضمنهم حاييم بن شمول... وأمثاله)... لا يشاطرون الرأي (الخاص بنفاذ صبر المسلمين وتساعد خطر إغارتهم على اليهود)، بل يعتقدون على العكس أن الأخطار المحدقة بإخوانهم في الدين سوف لن تتحقق ما دام المسلمون يشعرون بالخوف ويخشون تدخل الأجنبي لصالح اليهود... والإنعام عليهم ببطاقات الحماية الفرنسية."

20. بن الصغير، المغرب وبريطانيا، 342-350.

على كل الرعايا المغاربة وحتى المقيمين الأجانب. وكان الإصلاح الجبائي على هذا المنوال يشكل في نظر السلطان المولى الحسن (1873-1894) الشرط الأساسي اللازم تحقيقه لرفع مداخيل بيت المال بشكل ملموس وتوفير الموارد اللازمة لإنجاز إصلاحات حيوية أخرى وإنهاء الاضطرابات والانتفاضات التي كانت تندلع من حين لآخر بسبب ثقل الضرائب والحيف اللاحق من جرائها لفئات واسعة في البوادي والمدن.²¹

ونظرا لثقتهم في دعم المفوضيات الأجنبية وطابعه اللامشروط، لاسيما في كل ما من شأنه إضعاف المخزن وإذكاء التناقضات الداخلية، كان بعض الأعيان اليهود يقدمون على مبادرات غير مسبوقه يعتبرها السلطان خرقا سافرا وجريئا لمقتضيات الذمة وتحد مفتوح للسلطة المخزنية حتى في مدينة مثل فاس وحي قريب من القصر. وذلك ما تعكسه رسالة وجهها المولى الحسن إلى قاضي فاس بتاريخ 14 فبراير 1883. وإن لجوء السلطان إلى القاضي بدلا من اتخاذ إجراءات زجرية على الفور لإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي لدليل على ترده واحتياطه أمام خطر تفاقم الوضع في حالة تدخل المفوضيات. جاء في الرسالة ما يلي:

”اتفق يهود فاس العليا) على إحداث أمر بملاحمهم مخالف لعاداتهم وهو نصب حزان وتاجرين من تجارهم في ملاحمهم للحكم فيما يعرض بين إخوانهم من الوقائع كالسرقة وسائر الدعاوي وعلى إبداهم في رأس كل شهر بآخرين وصار هؤلاء الحكام يقبضون على من أرادوا من خصوم إخوانهم ويوجهونهم للسجن على يد عاملهم ويسرحونهم منه على يده، وحيث لم تجر لهم عادة بنصب ما ذكر وكانوا معاهدين والأمور التي بينهم وبين المسلمين كلها مبنية على قواعد الشرع رددنا قضيتهم للشرع، وعليه فنامرك أن تجتمع أنت والفقهاء (المعينون لهذا الغرض) وتنزلوا لهذه القضية وتعطوها حقها من النظر والتأمل والبحث ومراجعة عقد ذمتهم، هل هم معاهدون في ذلك أم لا وما اقتضاه الشرع في النازلة من تسويغ ذلك لهم أو منعهم منه

21. كنيب، المحميون، 107-124.

وردهم لعادتهم طالعوا به علمنا الشريف، واعلموا به خالنا القائد العربي ولد با محمد لينفذه، فقد أمرناه بتنفيذه والسلام.²²

وخلال الحقبة نفسها احتدت النزاعات بين بعض تجار دمنا وعاملهم وكانت تتصدرها في واقع الأمر منافسة تجارية شديدة بين الطرفين، فاستنجد اليهود بإخوانهم في الدين المقربين من المفوضيات الأجنبية بطنجة. وتفاديا لتفاقم الأمور كلف المولى الحسن الثري اليهودي المراكشي يشوع قرقوز، والتاجر المراكشي المستظل بالحماية البريطانية، بوبكر الغنجاوي، بتقصي الحقائق.²³ وتعكس إحدى الرسائل التي وجهها الغنجاوي بهذا الشأن إلى حاميه جون دراموند هاي، بصفته من أهم عملائه ومخبريه، بعض أطوار هذه القضية:

”تعلمك على وجه السر بأننا لما بلغنا اتفاقك مع من ذكرت من الأجناس في شأن قضية يهود دمنا وكتبتم بذلك لدار المخزن في شأن إعطاء الحق ونصف المظلوم من الظالم... ألقينا السمع ووقع منا البحث التام عما صدر بدار المخزن... فأخبرنا بعض التسمين بالخدمة بدار المخزن ممن له الحظ في ذلك وموضع سر أخي الوزير كبير العسكر أنه سمع منه أن التازي الموحث لما سمع الاتفاق الواقع منك مع باشدور الطليان وباشدور الافرنصيص، قال أن هذا الاتفاق ما فيه إلا الضرر الكبير على دار المخزن...؛ هذا التازي هو المشير بالرأي وصاحب الإبرام والنقض، وعدم معرفته بالأمر... ولا يشير إلا بالرأي الذي يعود بالوبال والنكال، ويستلزم الرد القبيح والخطاب القوي. وحين يرى ذلك يرجع لأصله ويعرف قدر قيمته... والذي يبين لك اطلعنا وبحثنا هو أن وقع قبول الشيخ المجعول على يد الباشدورات الثلاث بدمنا الذي هو رأي سديد وفيه رفع المضرة من غير نزاع فيه... وذلك التازي هو المشير بالخلاف وعدم الإنصاف...“

22. ظهر موجه لقاضي فاس بتاريخ 6 ربيع الثاني 1300/15 فبراير 1883 انظر نصه عند عبد الرحمن بن زيدان، إتخاف أعلام الناس بجهال أخبار حاضرة مكناس (الرباط: المطبعة الوطنية، 1930)، ج.2
23. حول هذا الصراع وتطور الأوضاع في دمنا، وظروف إحداث ملاح هذه المدينة سنة 1887، انظر أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان 1830-1912 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 65، 1983) 166-167؛ بن الصغير، المغرب وبريطانيا، 361-369.

والذي ظهر لي أن الباشدور الافرنسيص تكن معه بخير ومساعدة فإن ذلك لم يُوافق مرادهم في دار المخزن، حيث إنما يجبون مخالفتك مع جميع الأجناس ليقضون بك أغراضهم من أجل ذلك. وبذلك يقع التهاون في أموركم... والذي ظهر لي أن وقوفك ليهود دمنات في إعطاء الحق في هذه القضية ظهر لهم منك خلاف ما يظنون وعملوا بموجب ذلك وأنزلوك به في موضع الجد، وعلى المحبة والسلام، في 28 جمادى 2 عام 1302 [14 أبريل 1885].²⁴

وفي السياق نفسه، كانت تصرفات بعض العناصر الثرية، وحتى من كان منهم مقربا من البلاط-لا تخلو من "الطيش" حسب التعبير المخزني-، ولا تثير سخط المسلمين فحسب، بل أفضت إلى المساهمة في إحداث قلاقل جمة داخل الملاحظات وفي صفوف ساكنتها. ويتجلى ذلك من خلال رسالة وجهها عامل مكناس حمو بن الجليلي إلى أحمد بن موسى مشتكيا بمن أسماه "اللعين" ومطالبها الوزير الأعظم بالوقوف "لإعلاء كلمة الله ورسوله لأن هذا الظالم قد خرج عن الطور غاية."

ورد في شكوى العامل ما يلي:

"لم يبق إجراء الأحكام يتابع على يهود مكناس من أجل مظالم الذمي يعقوب أحناء، فإنه قد شاع فساده وكثر خوضه إفساده في جميع الأمور والأحكام ومهما كانت قضية أو دعوى بين الذميين إلا وتراه يخوض فيها حتى... يوقع الحكام في الحيرة وهذا دأبه سواء كانت الدعوة رفعت إلينا أو الشرع المطاع أو حزانيهم فإنهم لا يستطيعون أن يحكموا في ما بينهم إلا برأيه... فإن أراد شيئا يدخلهم داره ويشهد بهم الزور ويحكم لنفسه بما شاء ولا يعطي حقا لأحد أيا ما كان هو وأصحابه وأصهاره ومن تبعه...، إن جميع اليهود كبيرا وصغيرا تضرروا (بسبب تجاوزاته) ولا زالوا لأنه ضيق عليهم غاية في معاشهم وقد زاد اليوم في... طغيانه [بعد أن عزل] عن الحسبة إدريس بن زينة

24. الوثيقة رقم 12، (FO 174/110) بوبكر الغنجاوي إلى دراموند هاي، سرا، 28 جمادى الثانية 1302/14 أبريل 1885، انظر خالد بن الصغير، "في خدمة جلاله الملكة: مراسلات بوبكر الغنجاوي السرية (1873-1893)،" هسبريس - تمودا 44 (2009): 107-108.

لأنه كان وليه وكان جاعلا له حاسبة الملاح بيده يفعل بها ما يشاء ويستبد بهال له بال... والناس مع (هذا) الذمي في ضيق (حيث) صار يقيم (عليهم) الحجج الواهية (ويرميهم) بالأباطيل... ومن أسباب ما صدر منه هو ما كان في سالفه من زيادة تجار ذميين في البلاصة عليه تسعمائية ريال في العالم ولا زالوا كذلك، وكان سرق لمولانا المقدس في الخزائن سبعمائة ريال وتداعوا معه الأمانة عليها.²⁵

وقد ساهم في تعزيز موقف العامل تظلم أعيان يهود لدى السلطان واستنكارهم لتصرفات أحنا، ومنها ما يتعلق بتطاوله حتى في مسألة اللحوم والضريبة المستخلصة منها لفائدة أعمال الملاح الخيرية. وقد نصت الرسالة الجوابية الموجهة للعامل بهذا الشأن على ما يلي:

”وصيفنا الأرضي القائد حم بن الجيلالي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد فعلى أعتابنا الشريفة اشتكى اليهودي الحزان شلوم بن الويري وفريقه بأن اليهودي يعقوب أحنا لما أشهد عليه العجز عن الإتيان بالحجة المطالب بها في فرضه زيادة الريال في اللحم وسرح ما كنا أمرنا بتثقيفه من الزيادة المذكورة وصار الخزانون يقتسمون ذلك على الضعاف منهم صار أحنا يأخذ منهم الوفر لنفسه اثنا عشر ريالا في الجمعة، وادعى أننا أنعمنا عليه بإبقاء حانوته على العادة القديمة مع حرمة استبداد أحد أغنيائهم بشيء من ذلك واختصاصه بفقرائهم حسبما بظهيرنا الشريف، وعليه، فنأمرك أمرا جزما بكف أحنا المذكور على ذلك وإلزامه السلوك مع السلك الذي وقع عليه الحكم بينهم بحيث لا يستبعد بشيء من ذلك لاختصاصه بفقرائهم، وحتى ما ادعاه من أن بيده ظهيرنا الشريف بإبقاء حانوته على عادته القديمة فمصرفه ومحملة فيما يرجع إلى الأمور المخزنية، وأما ما يرجع لحكم شرعهم فلا مدخل للمخزن فيه، فيلزمه أداء الزيادة المذكورة في جميع ما يبيع من اللحم بحانوته المذكورة كغيرها من سائر حوانيت جزاري

25. مديرية الوثائق الملكية، محفظة مكناس، مراسلة بتاريخ 15 رمضان 17/1314 فبراير 1897.

اليهود لزوما، فلتنفذ ذلك ولتعمل بمقتضاه، وإذا أقرأت كتابنا هذا رده إليهم يتمسكون به، والسلام.²⁶

ولمواجهة العامل، عبأ أحد أبناء يعقوب أحنا، وهو المدعو أبراهام، الحامل لبطاقة الحماية الإيطالية، "أصحابه" الموجودين في دوائر البلاط السلطاني لإفشال مساعي حمو بن الجليلي وإبقاء الوضع على ما كان عليه، بل وتمكن من استصدار رسالة سلطانية لتبويخ العامل المذكور. وقد جاء في هذه الرسالة:

"وصيفنا الأرضي القائد بن الجليلي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، فقد اشتكى على حضرتنا الشريفة ابراهيم احنا المكناسي أن حقوقهم ضاعت، وتجارهم تعطلت بإعراضك عن فصال دعاويهم التي يرفعونها لك، وعدم التفاتك إليها، وقد استغربنا صدور هذا منك واستبعدناه، لكونه من شأن من لا ينظر في عواقب الأمور، ولا يعرف أن ثمرة الولاية وفائدتهم هي إيصال ذوي الحقوق بحقوقهم، وأن المسلم والذمي في الحق سواء، وعليه فنأمرك أن تكون على بال من دعاويهم وما كان منها مخزنا عاجل بفصله على وجه الحق، وما كان منها شرعيا اصرفه له في الحين لتريح وتستريح، والسلام.²⁷

وتعكس مثل هذه الأحداث والوقائع مدى تعبئة فئة كبار التجار اليهود للدفاع عن مصالحهم والوسائل القصوى التي اعتادوا تسخيرها من أجل ذلك ولو اقتضى الأمر التسبب في تفرقة مجموعاتهم والاستخفاف حتى بالتضامن المتمثل في الإسهام في "صندوق الفقراء." هل كان يمكنهم والحالة هذه الاستجابة لما كان مفروضا أن ينتظره المخزن منهم في مجال الإصلاح على اعتبار الخبرة التي اكتسبوها نتيجة احتكاكهم بالأوروبيين وبالحدثة وكذا ما تمليه عليهم مبدئيا المصالح المشتركة التي تربط بعضهم مباشرة بالسلطان والوزراء-أو على الأقل ممن كان ضمن هؤلاء لا يعارض صراحة المبادرات الإصلاحية؟

26. رسالة السلطان إلى العامل حمو بن الجليلي، 10 ربيع النبي عام 1313/31 غشت 1895، ابن زيدان، العز والصلوة، 141-142.

27. رسالة من السلطان إلى حمو بن الجليلي، 29 صفر 1302/17 دجنبر 1883، ابن زيدان، العز والصلوة، 137-138.

الملاحظ في معظم الأحوال أن التطابق الموضوعي والنسبي والقابل للتغيير بين هذه الأطراف أمر عسير ولا يمكن عموماً ملامسته بشكل واضح سوى على مستويات محدودة وفي طليعتها بصفة خاصة انشغال النخبة التجارية اليهودية، على غرار السلطان والدوائر المخزنية التي تشاطره الرأي، بالانعكاسات المحتملة للتطورات التي كانت تشهدها البلاد وكان من شأنها أن تؤدي إلى استحواذ مباشر لقوة أجنبية على ثرواتها ومقاليده الأمور فيها وتحويلها إلى مستعمرة. وقد برز توافق المواقف على هذا المستوى بكيفية واضحة إبان الفترة التي أعقبت مؤتمر مدريد الدولي وطرحت خلالها الحكومات الأوروبية مشروع مراجعة اتفاقية 1880 وتقليص عدد المحميين والمتجنسين مقابل مراجعة معاهدة 1856 وتعويضها باتفاقية جديدة تنص على التحرير الشامل للمبادلات التجارية البحرية، بما في ذلك تصدير كل المنتجات الفلاحية المغربية بصرف النظر عن مستوى المحاصيل الزراعية والتقلبات المناخية.²⁸

وخلال هذه الحقبة (1884-1888) ووفقاً لثوابت خطته في مجال التجارة البحرية، حاول السلطان إيجاد الدعم اللازم لتعزيز مواقفه ومواجهة الضغوط الأجنبية. ولذلك استشار الرعية بقوله:

”أما بعد، فقد كان طلب منا بعض نواب الأجناس بطنجة... تجديده شروط التجارة بقصد تسريح الأشياء الممنوعة الوسق كالحبوب مطلقاً والإنعام والبهائم ونحو ذلك ونقصان صاكة الخارج ذاكرين أن تسريح ذلك فيه النفع لبيت المال وللرعية وهذه مدة من خمسة أعوام ونحن ندافع ونسد... لإبقاء ما كان على ما كان...، والآن قد اشتد حرصهم على ذلك وتمالؤوا فيه على كلمة واحدة...، ولما أفضى الحال إلى ما أفضى إليه مما لا ينبغي ولم يمكن إلا الإعلان بذلك والمشاورة فيه مع من يعتد به استشرنا فيه جميع من يشار إليه بالخير والفضل والدين والعقل والذكاء والدهاء موثوقاً بديانته وأمانته فلم يشيروا فيه بخبر واتفقوا على أن لا مصلحة في تسريح ذلك أصلاً...“

28. بن الصغير، المغرب وبريطانيا، 475-506.

ويترتب عليه ضعف المدخول الذي منه يقوم المخزن الجيش والعسكر ومصالح الرعية وأعظمها تضعيف الرعية بالقبض.²⁹

وإثر حصوله على ما كان ينتظره من هذه الاستشارة، تمسك السلطان برفضه لمطالب الأوروبيين وأعلن ماييلي:

”اقتضى نظرنا الشريف أن ظهر لكم درء لتلك المفاسد المقدم على جلب المصالح أن يساعدوا على تسريح أشياء بقصد الاختبار، من تلك الأمور الممنوعة الوسط كالقمح والشعير وذكر أن البقر والغنم والمعز والحمير ثلاث سنين فقط، على شرط الاختبار في المنفعة التي ذكروها في تسريحه، الكل بأعشاره المعلومة في مثله على أن يكون تسريح ذلك في وقت غلته مع وجود الخصب مدة من ثلاثة أشهر وبعد مضيها يثقف، (...) ولتعلموا أنكم لن تزالوا في سعة فان ظهر لكم ذلك فالأمر يبقى بحاله، وان ظهر لكم ما هو أسد وأحوط في الدفاع عن المسلمين فاعلمونا به إذ ما أنا إلا واحد من المسلمين، وأعلمناكم بما كان امتثالا لقوله تعالى: (وشاورهم في الأمر) والسلام في سابع رجب الفرد الحرام عام ثلاثة وثلاثمائة.³⁰

لم يكتفي مفوضو الدول الأوروبية بانتقاد معارضة السلطان الشديدة لمقترحاتهم وبالتشكيك في مصداقية استشارته لأعيان المدن والقبائل لإبراز رفض عامة الناس وسوادهم لتحرير المبادلات والمآسي المحتملة جراء القلة وارتفاع ثمن المواد الغذائية الأساسية، بل صبوا اللوم كذلك على كبار التجار اليهود المقربين من البلاط السلطاني واعتبروا أنهم تحركوا في الخفاء وحذروا المولى الحسن من مغبة أي تحرير من شأنه فتح الباب على مصراعيه أمام النصارى وأن يدفع المغرب صوب مصير مماثل لمصير تونس ومصر.

29. استشارة السلطان للرعية، أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1956) ج. 9، 182-183؛ وانظر ما جاء حول التطورات اللاحقة في هذا الموضوع على عهد السلطان المولى عبد العزيز عند خالد بن الصغير، بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب، 1886-1904 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 62)، 27-122.

30. قرار السلطان إثر هذه الاستشارة الذي اعتمد فيه على دعم العلماء والأعيان لرفض طلب المفوضيات، انظر التفاصيل عند كنيب، المحميون، 313-328.

وفي انتقاداتهم وتحاملهم على العناصر المتهمة باللعب على الحبلين والنفاق وعدم الاعتراف بالجميل تجاه القوى التي كانت توفر لهم بطاقات الحماية والجوازات الأجنبية، اعتبر المفوضون الأوروبيون أن الحفاظ على مواقعها وعلى دور الوساطة بين أوروبا والسوق المغربية وما يدره ذلك عليها من ريع وأرباح كثيرة يشكل همها الوحيد وأنها تعتبر المغرب حكرا لها ولا تستحمل أي منافس لها فوق ترابه. وبما أن الإيديولوجية المعادية للسامية كانت تفرض نفسها آنذاك بقوة في أوروبا، فقد تشعب بها بعض هؤلاء السفراء واستعملوا نعت قذح ومعاداة اليهودية في تقاريرهم الخاصة بكبار التجار اليهود حيث اتهمهم بالتعصب الديني وكرهية الأجنبي والتواطؤ مع المسلمين وحتى مع "العلماء المتشددين والمتزمطين"، مؤكداً بهذا الصدد أن "التعصب الديني العبري لا يقل حدة مقارنة بالتعصب الإسلامي".³¹

ولاستكمال الصورة ووضعها في سياقها العام، من اللازم مقارنة مواقف التجار اليهود بأدوار ووظائف التجار المسلمين والقفزة النوعية التي حققوها خلال القرن التاسع عشر بفضل تزايد اعتماد المخزن على خبراتهم وتكليفهم بمسؤوليات وزارية ومناصب عليا في جهاز الأمناء. ولتقييم ما آلت إليه الأمور بسبب ذلك، لا بأس من تأمل ما أدلى به صاحب الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، محمد بوجندار، بصفته شاهدا عاصر تطورات هذه الحقبة العسيرة ودون ملاحظاته وانطباعاته، حيث كتب بهذا الشأن ما نصه:

"في (عهد السلطان المولى الحسن) تأكدت المواصلة بدول أوروبا وعظمت التجارة وكثرت الأموال بين الناس فتأنقوا في المصانع والأبنية وبلغ أهل المغرب في الرفاهية مبلغا لم يبلغه أسلافهم. وكانت تلك الأيام على ما فيها من كثرة الغزوات والحركات كلها خيرات... لم يكدر صفوها إلا تسرب أقوام من التجار للمناصب السامية والمراتب العالية. فارتفعت منزلتهم ونفذت كلمتهم. وصار بيدهم الحل والعقد (...); (ولكنهم ولسوء) تصرفهم أوقعوا بالدولة الواقعة

31. كنيب، المحميون، 291-301؛ 302-312.

الأخيرة وأصابوها بالأزمة الخطيرة وزاد في الطين بلة تفاحش المظالم والتعديت من باقي الحكام، فنشأ عن ذلك مزيد التداخل الأجنبي لحماية أفراد من الأهالي من سيطرة حكامهم وبقي الأمر يتزايد إلى أن اضطر الدول لتقديم اقتراحاتهم في شأن إقامة العدل والمساواة في الحقوق وبث النظام الوقتي من إصلاح الطرقات وتسهيل المواصلات. فكان السلطان المولى الحسن يدافع عن ذلك بالتى هي أحسن إلى أن توفي. وبوفاته اتسع الخرق على الرايق واستوت الفرازن والبيادق بل اختلط الحابل بالنابل إلى أن حل بنا ما حل...³²

وتؤكد هذه الشهادة مدى التقاطع والتشابه الحاصل إلى حد ما في تصرفات وحسابات النخب التجارية بصرف النظر عن انتهائها الديني. واللافت فيما يخص العنصر اليهودي أن ازدواجية مواقف عناصره التقليدية لا تعكس تصورات النخبة اليهودية الجديدة التى برزت بالتدرج خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وعبأت نفسها من أجل الارتقاء الاجتماعي والاقتصادي لا على أساس روابط أسرية موروثية وذات طابع أوليغارشي أو علاقات متميزة مع الدوائر المخزنية العليا، بل على أساس التكوين العصري الذى تلقته في مدارس الرابطة اليهودية وجعلها تتشبع بالثقافة الغربية والحداثة وبما كان يثيره لديها إقدام فرنسا على التجنيس الجماعي ليهود مستعمرتها الجزائرية بمقتضى المرسوم الذى أصدرته سنة 1870، وهو مرسوم وقع عليه وزير العدل آنذاك، أدولف كريميو (Adolphe Crémieux)، أحد مؤسسي الرابطة اليهودية العالمية سنة 1860.

ولكن، وفيما يخص مسألة التجنيس بالذات، انتبه بعض خرجي مدارس الرابطة ممن تابعوا عن كثب تطورات الأوضاع إبان العقد الأول من القرن العشرين وظروف إخضاع المغرب لنظام الحماية أن آمال النخبة الجديدة سوف تصطدم بعراقيل كثيرة وأن دينامية الارتقاء عن طريق التعليم العصري وحده سوف لن تستمر بسهولة. وذلك ما صرح به أحد قدماء تلاميذ الرابطة، حاييم طوليدانو،

32. وردت عند مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر (الرباط: منشورات كلية الآداب، 1995)، 108-102، و149-150.

في خطاب ألقاه بطنجة سنة 1913، أي سنة واحدة بعد التوقيع على معاهدة فاس، حيث قال:

”إن عهدا جديدا يلوح بالأفق حاليا في المغرب، ويحمل في طياته تباشير حياة جديدة، (ويتوقع) أن يلغي (هذا العهد) الدور التقليدي الذي كان يلعبه اليهودي، حيث ستصبح المنافسة هي قانون البقاء. لكن المنافسة مع الأجنبي، وعدم توفير الأمن الشخصي (لليهودي)، وغياب دعم رسمي، واللامساواة أمام القانون التي يعاني منها اليهودي، (كل ذلك) ستجعله في وضعية دونية، (تستثنى منها) الفئة التي صنعت لنفسها وضعية وقلعات محصنة تجعلها في مأمن من كل الهجمات. فجماهير الأهالي الإسرائيليين سوف تعاني بعد فترة وجيزة من وطأة الضغط الاقتصادي للنظام الجديد وتتحول إلى برولتاريا يتربص له الفقر (...). وإنني أحجم في هذا المقام عن التطرق للقضايا ذات الطبيعة الاجتماعية (وربما كان من الأفضل القول: ذات الطبيعة العرقية) الملتحمة، والوثيقة الارتباط بالوقائع ذات الطبيعة الاقتصادية.“³³

Bibliographie

- Abitbol, Michel. “Un aspect des relations judéo-musulmanes au Maghreb à la fin du XIX^{ème} siècle: les négociants du Roi et la bourgeoisie Marocaine à la veille du Protectorat.” In *Les relations entre juifs et musulmans en Afrique du Nord XIX- XX siècles*, 110-117. Paris: Éditions du CNRS 1980.
- Arama, Maurice. *Delacroix: Un voyage initiatique. Maroc, Andalousie, Algérie*. Paris: Éditions Non Lieu, 2006.
- Baida, Jamaâ. *La presse marocaine d'expression française. Des origines à 1956*. Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 1996.
- Ben-Şrhir, Khalid. *Al-Maghrib wa Britāniyā al-'Uzmā, fī al-Qarn al-Tāsī'a 'Ashar (1856-1886)*. Al-Ribāt: Manshūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-'insāniyya, silsilat rasā'il wa 'utrūhāt raqm 34, 1997.

33. H. Toledano, *Le Maroc nouveau et les Israélites* (Tanger, Imp. Marocaine, 1913) 6-9.

- _____. "al-Zawāyā fi al-Maghrib wa al-Ḥimāyāt al-'Ajnabiyya: Namūdhajayi al-Zāwiya al-Wazzāniyya wa al-Maṣlūḥiyya," *al-Manāhil*, 29 (2007): 81/80, 255-209.
- _____. "Fī khidmat jalālat al-Malika: Murāsālāt Būbker al-Ghanjāwī al-sirriyya (1893-1873)." *Hespèris-Tamuda XLIV* (2009): 85-188.
- _____. *Britāniya wa 'Ishkāliyyat al-'Islāḥ Fī al-Maghrib, 1904-1886*. Al-Ribāt: Manshūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-'insāniyya, silsilat rasā'il wa 'utrūḥāt raqm 62, 2011.
- Chouraqui, André. *Histoire des Juifs en Afrique du Nord*. Paris: Hachette, 1985.
- Eugène, Fumey. *Correspondances marocaines. 50 lettres chérifiennes, Textes et Notes*. Paris: Maisonneuve, 1903.
- Ibn Zaydan, 'Abd al-Raḥmān. *Iṭḥāf 'Alām al-Nās bi Jamāl 'Akhbār Ḥādirat Maknās*. Al-Ribāt: al-Matb'a al-Wataniyya, 1930, juz' 2.
- _____. *Al-Izz wa al-Ṣawla Fī Ma'ālim Nuzum al-Dawla*, juz'. 2. Al-Ribāt: al-Matb'a al-Malakiyya, 1962.
- al-Kaddouri, Abdelmajid. *Le Maroc et l'Europe, problématique du dépassement XVe-XVIIe siècles*. Traduction de Abdelhak Lamsalmi. Casablanca: La Croisée des Chemins, 2012.
- Kenbib, Mohammed. *Al-Maḥmiyūn*. Al-Ribāt: Manshūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-'insāniyya, silsilat nuṣūṣ buḥūth wa dirāsāt, raqm 47, 2011.
- _____. *Juifs et musulmans au Maroc 1859-1948. Contribution à l'histoire des relations inter-communautaires en terre d'Islam*. Rabat, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, série: Thèses et mémoires n° 21, 1994.
- _____. "Structures traditionnelles et protections consulaires dans le Maroc précolonial," In *Structures et cultures précapitalistes*, René Galissot (dir.), 447-470. Paris: Anthropos, 1980.
- Laskier, Michael. *The Alliance Israelite Universelle and the Jewish Communities of Morocco, 1862 - 1962*. Albany: State University of New York Press, 1983.
- Loti, Pierre. *Au Maroc*. Paris: Ancienne Maison Michel Lévy Frères, 1891 .
- al-Manṣūr, Muḥammad. *Al-Maghrib Qabl al-'Istīmār, al-Mujtama' wa al-Dawla wa al-Dīn, (1792-1822)*. Tarjamat Muḥammad Ḥubayda. Al-Dār al-Baydā': al-Markaz al-Thaqāfi al-'Arabī, 2006.

- Miège, Jean- Louis. *Le Maroc et l'Europe 1830-1894*, vol. II. Paris: Presses Universitaires de France, 1962.
- al-Nāṣirī, 'Ahmad bin khālid. *Al-'Istiṣā' li 'Akhbār Duwal al-Maghrib al-'Aqṣā*. Al-Dār al-Baydā': Dār al-Kitāb, 1956, juz' 9.
- Rosenberger, Bernard. "Les Juifs au Maroc dans la première moitié du XV^{ème} siècle." *Hesperis-Tamuda* XXXVII (1999): 113-162.
- Schroeter, Daniel. *Tujjar al-Ṣawīra, al-Mujtamā' al-Ḥadarī wa al-'Impiriyāliyya fī Janūb Gharb al-Maghrib, (1886-1844)*. Ta'rib Khalid Ben Srhir. Al-Ribāt: Manshūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-'insāniyya, silsilat nuṣūṣ wa 'a'māl mutarajama, raqm 6, 1997.
- _____. *Yahudiy al-Sultān. Al-Maghrib wa 'Ālam al-Yahūd al-Sifarād*. Ta'rib Khalid Ben Srhir. Al-Ribāt: Manshūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-'insāniyya, silsilat nuṣūṣ wa 'a'māl mutarajama, raqm: 15, 2011.
- Shābbī, Mustafā. *Al-Nukhba al-Makhzaniyya fī Maghrib al-Qarn al-Tāsī'a 'Asha*. Al-Ribāt: Manshūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-'insāniyya, silsilat rasā'il wa 'utrūhāt raqm 26, 1995.
- Tawfiq, 'Aḥmad. *Al-Mujtamā' al-Maghribī fī al-Qarn al-Tāsī'a 'Asha: 'Inūltān (1830-1912)*. Al-Ribāt: Manshūrāt kulliyat al-'ādāb wa al-'ulūm al-'insāniyya, silsilat rasā'il wa 'utrūhāt raqm 63, 1983.
- Toledano, Haïm. *Le Maroc nouveau et les Israélites*. Tanger: Imprimeries Marocaines, 1913.
- al-Zu'frānī, Ḥayyīm. *'Alf Sana Min Ḥayāt al-Yahūd bi al-Maghrib, Tārīkh Thaḳāfa, Dīn*. Tarjamat 'Ahmad Shaḥlān wa 'Abd al-Ghaniy 'Abū al-'Azam. Al-Dār al-Baydā': Dār Qorṭoba, 1987.

ملخص:

Nukhbat al-tujār al-yahūd wa al-ttaḥaoulāt fī Maghrib mā qabla al-ḥimāya

نخبة التجار اليهود والتحويلات في مغرب ما قبل الحماية

أمام استفحال الضغوط الأجنبية حاول المخزن القيام ببعض الإصلاحات خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أملا في الحفاظ على استقلال البلاد. وتكونت الفئات الاجتماعية التي يمكن الاعتماد عليها مبدئيا في هذا الصدد من تجار مسلمين ويهود شكلوا قبل إبرام اتفاقية 1856 مع بريطانيا جزء من نظام "تجار السلطان" وراكموا من الخبرة والمهارات ما كان كفيلا بتمكينهم من المساهمة في مشاريع الإصلاح المخزنية المرتقبة. غير أن هذه النخب التجارية المسلمة واليهودية ما لبثت أن صارت محط منافسة حادة بين المخزن ومختلف القوى الأوروبية ذاتها، وفي مقابل ذلك حظي العنصر اليهودي باهتمام خاص بصفتهم أقلية ولصلاتهم مع المنظمات اليهودية في أوروبا والولايات المتحدة.

الكلمات المفتاحية: التحويلات، اليهود، السلطان، المخزن، الضغوط الخارجية، نخبة التجار، الحماية القنصلية، التجارة.

Résumé: L'élite commerçante juive et les mutations dans le Maroc précolonial

Suite à des pressions européennes, le Makhzen a essayé d'entreprendre une série de réformes pour sauvegarder l'indépendance du pays. L'élite commerçante juive et musulmane représentée surtout par les "Tujjar as-Sultān" avaient acquis une expérience et des compétences qui pouvaient être utiles en la matière. Toutefois, ces négociants sont devenus, comme le démontre cet article, l'objet d'une vive compétition entre le Makhzen et les Puissances européennes, accentuée dans le cas de l'élément juif par l'attention particulière que leur accordaient les Européens en leur qualité de minoritaires et leurs liens avec les grandes associations juives d'Europe et des États-Unis.

Mots clés: mutations, juifs, Sultan, pressions étrangères, élite commerçante, protection consulaire, commerce.

Abstract: The Jewish Trading Elite and the Mutations in Pre-colonial Morocco

Following European pressure, the Makhzen tried to undertake a series of reforms to safeguard the independence of the country. The Jewish and Muslim business elite, represented mainly by the *Tujjar as-sultān*, had acquired experience and skills that could be useful in this field. However, these merchants have become, as this article demonstrates, the subject of intense competition between the Makhzen and the European Powers, accentuated in the case of the Jewish element by the special attention accorded them by Europeans Minorities and their links with the major Jewish associations in Europe and the United States.

Key words: mutations, Jews, Sultan, foreign pressures, commercial elite, consular protection, Trade.

Resumen: comerciales de élite judía y mutaciones en el Marruecos precolonial

A raíz de las presiones europeenas, el Majzen ha intentado llevar a cabo una serie de reformas para salvaguardar la independencia del país. El carrito de élite judía y musulmana representada principalmente por “*Tujjar as-Sultan*” había adquirido experiencia y las habilidades que podrían ser útiles en este sentido. Sin embargo, estos comerciantes se han convertido, como lo demuestra este artículo, sujeta a una intensa competencia entre el Majzen y las potencias europeas, acentuado en el caso del elemento judío en la atención especial que les confiere por los europeos en su minoría calidad y sus vínculos con las principales organizaciones judías en Europa y Estados Unidos.

Palabras clave: cambios, Judios, Sultan, presión extranjera, tiendas de élite, protección consular, comercio.